قال رحمه الله تعالى :

[ولما طال هذا الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما ، وجرت المراوضة على ذلك ، ولم يتم الأمر ، حتى استشار ﷺ السعدين في ذلك فقالا : يا رسول الله إن كان الله أمَرك بهذا فسمعاً وطاعة ، وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرى أو بيعاً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف . فقال ﷺ : (إنما هو شيء أصنعه لكم) وصوَّب رأيهما في ذلك رضي الله عنهما ، ولم يفعل من ذلك شيئا] .

****

مرَّ معنا أن المشركين لما وصلوا إلى المنطقة ووجدوا هذا الخندق لم يتمكنوا من الدخول ، وإنّما تجرأ منهم أربعة تقريباً وقفزوا بخيلهم الخندق وطلبوا البِراز فقُتل واحداً منهم ورجع البقية فارون إلى جيش المشركين ، وأصبح لم يكن هناك تلاحم وقتال ، وإنّما من وراء الخندق رمي وتراشق من جيش المسلمين وجيش الكفار بالنبال، وكان المسلمون في سلامة بما يسَّره الله ﷻ من حفر هذا الخندق ، وكان هذا الخندق حصناً بمنّ الله وفضله من دخول الأعداء . وبقوا قرابة الشهر محاصِرين المدينة ، يتحينون فرصةً حتى يدخلوا المدينة ، والمسلمون من وراء الخندق في

حماية مستمرة وحراسة دائمة في الليل والنّهار يتناوبون على ذلك حمايةً لثغر المدينة من أن يدخل منه الأعداء .

في هذه الأثناء يقول المصنف رحمه الله : ((**ولما طال هذا الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عيينة ابن حصن والحارث ابن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما**)) ؛ وغطفان مجيئهم إلى المدينة نوعًا ما مختلف عن مجيء قريش ، فمجيئهم إضافة إلى العداوة الدينية لديهم مطامع ، وأيضاً وعدهم اليهود بأن يعطوهم نصف ثمر خيبر إذا شاركوا في هذه الغزوة التي قصدوا فيها بزعمهم استئصال المسلمين وقطع دابرهم ، فجاءوا وتجمَّع هذا العدد على أساس أطماع ووعود من اليهود ، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يخفف على المسلمين من عدد الأعداء المقاتلين لهم ؛ فبدأ يعقد مفاوضات مع غطفان بحيث ينصرفون ولا يشتركون مع الكفار في هذه الغزوة ويكون لهم ثلث الثمر من ثمار المدينة ، والمدينة مليئة بالنخيل المثمرة .

((**وجرت المراوضة على ذلك**)) ؛ المراوضة بين المتبايعَين : بحيث أحدهما يزيد والآخر ينقص ، يقول البائع مثلاً : قيمته كذا ، فيقول : لا أنا أريده بكذا ، فيقول البائع : بكذا ؛ فهذه تسمى مراوضة .

قال : ((**ولم يتم الأمر**)) ؛ أي : بينه وبينهم .

((**حتى استشار السعدين في ذلك**)) ؛ لم يتمم الأمر صلوات الله وسلامه عليه حتى استدعى سيدي الأوس والخزرج – سعد ابن معاذ وسعد ابن عبادة – واستشارهما عليه الصلاة والسلام في هذا الأمر ، ويمر علينا في سيرته وفي مغازيه عليه الصلاة والسلام استشارته لصحبه الكرام ، وكانوا معه في غاية الأدب في إبداء الرأي ، وكثيرا ما يتكرر السؤال منهم في القضية التي يريدون إبداء الرأي للنبي ﷺ فيها " هل هذا أمر من الله ؟ "، " هل فيها وحي؟ " لأنه إذا كان الأمر فيه نص وفيه وحي لا مجال لإبداء الرأي ، أما إذا كان أمراً ليس فيه وحي من الله وإنّما هو رأي للمصلحة فحينئذ يبدون رأيهم للنبي ﷺ والأمر في البت يكون إليه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

((**فاستشار عليه الصلاة والسلام السعدين في ذلك ، فقالا : يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة**)) ؛ يعني إذا كان هذا وحي من الله ﷻ وأمر منه ﷻ أن تعطيهم ثلث الثمر فليس هناك في هذا إلا الوقوف عند قدم التسليم والسمع والطاعة لأمره ﷻ .

((**وإن كان شيئاً تصنعه لنا**)) ؛ يعني أنت قصدت به التخفيف علينا والرفق بنا وتهوين الأمر .

((**فلقد كنا نحن وهؤلاء** – يعني غطفان – **على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم في ذلك الوقت لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قرًى أو بيعاً**)) ؛ قِرى : أي ضيافة ، والبيع : بثمن يدفعونه مقابل الثمر .

((**فحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف**))؛ فابدوا للنبي عليه الصلاة والسلام هذا الرأي .

((**فقال : إنما هو شيء أصنعه لكم**)) ؛ يعني ليس فيه أمر من الله وإنما هو شيء أردتُ به أن أخفف عليكم جزءًا كبيراً من هؤلاء الأعداء ؛ أصالحهم على جزء من الثمر فينصرفون فيقِلّ حجم الأعداء ، وهذا أيضاً يكون فيه تفكيك للعدو وفت في عضده ، عندما ينسحب عدد كبير ممن تجمعوا معهم لمقاتلة المسلمين .

((**وصوَّب رأيهما في ذلك**)) ؛ أي أنه عليه الصلاة والسلام قطع المفاوضة مع غطفان وصوَّب رأي هذين الصحابيين الجليلين رضي الله عنهما ((**ولم يفعل من ذلك شيئا**)) .

قال رحمه الله :

[**ثم إن الله سبحانه – وله الحمد – صنع أمراً من عنده خذَّل به بينهم وفلَّ جموعهم ، وذلك أن نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني** رضي الله عنه **جاء إلى النبي** ﷺ **فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت فمرني بما شئت ، فقال** ﷺ :" **إنما أنت رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة** " . **فذهب من حينه ذلك إلى بني قريظة ـ وكان عشيراً لهم في الجاهلية ـ فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال : يا بني قريظة إنكم قد حاربتم محمداً ، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انشمروا إلى بلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم . قالوا : فما العمل يا نُعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم**

رهائن . قالوا لقد أشرت بالرأي . ثم نهض إلى قريش فقال لأبي سفيان ولهم : تعلمون ودِّي ونصحي لكم ؟ قالوا نعم . قال: إن يهود ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه ، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئونه عليكم . ثم ذهب إلى قومه غطفان فقال لهم مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت في شوال بعثوا إلى يهود : إنا لسنا بأرض مقام فانهضوا بنا غداً نناجز هذا الرجل ، فأرسل إليهم اليهود : إن اليوم يوم السبت ، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رُهناً ، فلما جاءهم الرسل بذلك قالت قريش : صدقنا والله نعيم بن مسعود ، وبعثوا إلى يهود : إنا والله لا نرسل لكم أحداً فاخرجوا معنا ، فقالت بنو قريظة : صدق والله نعيم ، وأبوا أن يقاتلوا معهم . وأرسل الله ﷻ على قريش ومن معهم الجنود والريح تزلزلهم ، فجعلوا لا يقر لهم قرار ولا تثبت لهم خيمة ولا طُنُب ولا قِدر ولا شيء، فلما رأوا ذلك ترحلوا من ليلتهم تلك] .

****

ثم قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**ثم إن الله سبحانه – وله الحمد – صنع أمراً من عنده خذّل به بينهم وفلَّ جموعهم**)) ؛ وتأمل الآن – ولله ﷻ المنّ والفضل وحده – هذه الجموع التي تبلغ أعدادها عشرة آلاف تجمعوا واحتشدوا حول المدينة لمقاتلة النبي ﷺ ، يسَّر الله ﷻ أن تفكك هذا الجمع وانفت عضدهم برجل واحد يسَّره الله ﷻ فخلخل بينهم واهتزت الكلمة ودخلهم الوهن والضعف ، ولهذا يقول الحافظ ابن كثير : ((**ثم إن الله سبحانه – وله الحمد – صنع أمراً من عنده خذَّل به بينهم**)) ؛ كانوا يداً واحدة مجتمعين على مقاتلة النبي ﷺ فأوجد بينهم هذا الرجل الواحد بمنّ الله وفضله تفككاً وتخلخلاً وأصبحت يدهم ليست واحدة كما كانت ، فهذا أضعفهم وأدخل عليهم الوهن .

((**وذلك أن نعيم ابن مسعود ابن عامر الأشجعي الغطفاني**)) ؛ من غطفان ، وغطفان كما عرفنا لهم جموع اصطفوا حول المدينة أيضاً للمهمة نفسها مقاتلة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ومقاتلة أصحابه الكرام والإجهاز على من بالمدينة من المسلمين ، فمنّ الله ﷻ على هذا الرجل –نعيم– في ذلك اليوم وشرح الله صدره للإسلام ، وكان قبل ذلك على الشرك والكفر بالله ﷻ وجاء إلى النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه فقال : ((**يا رسول**

الله إني قد أسلمت فمرني بما شئت)) ؛ الآن اجتمع في هذا الرجل شرح صدره للإسلام وفي الوقت نفسه همته العالية في نصرة الدين ، فهو جاء يعرض نفسه على النبي عليه الصلاة والسلام يقول أنا مستعد بأي أمر تأمرني به نصرة لهذا الدين .

((**فقال له عليه الصلاة والسلام :" إنما أنت رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة** ")) ؛ وذلك أن الرجل لم يُعلم عند القوم بإسلامه فقال له عليه الصلاة والسلام : ((خذِّل عنّا ما استطعت)) ، فاتجه نعيم ابن مسعود ﷺ إلى إيقاع الفتنة بين هذه الجموع ، فاتجه أولاً إلى يهود بني قريظة وقال : تعلمون عني أني نديم لكم ومعاشر وجليس لكم – وهو فعلاً كان أمره كذلك يعرفون منه ذلك ، فقال لهم أنا ناصح لكم – هذه الجيوش التي تجمعت ليسوا أهل بلد ، بلدهم مكة ، وعند أدنى أي أمر سيرجعون إلى بلدهم ، أما أنتم هذا بلدكم وهذه مساكنكم فما الذي يضمن لكم إذا رجعوا إلى مكة عند أدنى انسحاب من الموقع أن تسلموا من النبي عليه الصلاة والسلام وقد نقضتم العهد ؟ وليس بينكم وبين قريش شيء تضمنون به أمركم ، فلا أقل من أن تطلبوا منهم أن يسلِّموكم رهائن بحيث لا يفرُّون ويتركونكم وحدكم في الساحة ، يكون بيدكم ضمانات بحيث لو أنه حصل أدنى شيء وانسحبت قريش يكون بيدكم رهائن تضمنون بها بقاء نصرة هؤلاء معكم . فأعجبهم الرأي.

ثم بعد أن أعطاهم هذا الأمر انتقل منهم وذهب إلى قريش وقال : إن العهد الذي كان من بني قريظة إليكم انتهى ، نقضت بنو قريضة العهد الذي كان بينكم وتصالحوا مع محمد ﷺ ، ومن أجل إثبات أنهم فعلاً تابوا من عملهم ومن خطئهم في نقض عهدهم معه اتفقوا معه أنهم سيسلِّمونه رهائن منكم كتبرئة وتكفير للخطأ الذي حصل منهم . ثم أيضا ذهب إلى قومه غطفان وأعطاهم مثل هذا الكلام ، ولما طال الأمر بقريش عزموا على القتال فكلَّموا اليهود في هذا الأمر وقالوا إننا سنبدأ بالمقاتلة وكان ذلك يوم سبت ، فقال لهم اليهود : هذا يوم سبت ولا نقاتل في مثل هذا اليوم ، وأصلاً نحن ليس عندنا نية أن نقاتل معكم حتى تسلِّمونا رهائن نضمن بها بقاء نصرتكم ، فقالوا في أنفسهم : صدق نعيم . وامتنعت قريش من أن يسلموهم الرهائن فقالت اليهود : صدق نعيم ؛ فاختل الالتئام الذي كان بينهم وانتقض الأمر الذي بين اليهود وبين غطفان ، فحصل تفكك ، وهذا التفكك يوهن الجيش

ويُلقي فيه الوهن والضعف ، فكانت هذه منّة من الله ﷻ أن تفككت هذه الجموع وأصبح كل فريق من هؤلاء لا يثق بمناصرة الآخر ومعاونته له . هذا جانب ممّا صنعه الله ﷻ ومنَّ به حيث فكك بهذا الأمر برجل واحد فكك هذه الجموع .

الأمر الثاني : وهو أن الله ﷻ أرسل عليهم الريح وجنوداً لم تروها وهم الملائكة ، وتحدث الله ﷻ بهذه النعمة في القرآن في أول ما ذكره سبحانه في سورة الأحزاب عن هذه الغزوة قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) ﴾ ؛ فأرسل الله ﷻ ريحاً شديدة فكانت هذه الريح تقتلع الخيام وتكفأ قدور الطعام وتؤذي الناس والماشية في أبشارهم وأجسامهم ، فحصل لهم ضرر وأصبحوا لا يستطيعون المقام ولا يستطيعون الصبر ولا يتمكنون أيضاً من الدخول إلى المدينة لأن هذا الخندق حال بينهم وبين الدخول ، ومن جهة اليهود انتقض الذي كان بينهم وبين يهود بني قريظة بما يسَّره الله ﷻ على يد نعيم ، والجو بارد والرياح شديدة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح ((نُصِرْتُ بِالصَّبَا)) والصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس ، فاستمرت هذه الريح مؤذية لهم تكفأ القدور وتقتلع الخيام وتؤذي دوابهم وليس عندهم استطاعة لدخول المدينة ، فأصبح المقام ليس له فائدة ؛ فرجعوا إلى مكة وانفلَّت تلك الجموع ورجعوا جميعاً خائبين خاسرين ، وكفى الله ﷻ المؤمنين القتال ، وفي هذا قال الله ﷻ في تمام هذا السياق : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ ، فرجعت هذه الجموع والجيوش والعتاد والخيل بشر خيبة وخزي ورجعوا كلٌ إلى دياره وإلى أماكنهم لم يتمكنوا من مطامعهم ومآربهم ومقاصدهم التي جاؤوا إلى المدينة لأجلها ، قد أوهن الله ﷻ كيدهم وأبطل مكرهم ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال:١٨] ، ويعلن النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الأثناء وهي بشارة يسوقها عليه الصلاة والسلام للمؤمنين فيقول كما جاء في حديث سليمان ابن

صُرد في الصحيح: ((الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ)) يعني أن الأمر سيتحول بدل الإتيان – جاؤوا إلى النبي ﷺ في بدر ، جاؤوا إليهم في أحد ، جاؤوا في الأحزاب – من هذه المرة يتحول الأمر أن جيش المسلمين هو الذي يغزو هؤلاء الكفار .

قال رحمه الله :

[وأرسل ﷺ حذيفة بن اليمان يخبر له خبرهم ، فوجدهم كما وصفنا ، ورأى أبا سفيان يصلي ظهره بنار ولو شاء حذيفة لقتله ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ ليلاً فأخبره برحيلهم]

.

****

قال رحمه الله تعالى : ((**وأرسل حذيفة ابن اليمان يخبُر له خبرهم**)) ؛ في آخر الأمر لما جاءت هذه الرياح الشديدة وكان الجو باردًا قال النبي عليه الصلاة والسلام : من يخبُر لي خبر القوم ويكون رفيقاً لي في الجنة ؟ يقول حذيفة : " فكلنا سكتنا " ؛ الجو بارد والرياح شديدة ، والقوم في غاية التعب ، والمطلوب أن يذهب شخص إلى وسط الكفار ، حتى يخبُر خبرهم . فأعادها عليه الصلاة والسلام ، قال : ((من يخبر لي خبرهم ويكون رفيقي في الجنة)) ثلاث مرات يعيدها ، يقول : وكلنا سكوت . فقال عليه الصلاة والسلام : ((قم يا حذيفة)) يقول حذيفة : فلما سماني باسمي ، قلت ليس لي من القيام بد ، فذهب حذيفة ﷺ وتسلل من طريق وجاء بين الكفار حتى يستمع عن ماذا يتحدثون . حتى جاء في بعض الروايات أنَّ أبا سفيان أراد أن يصارح القوم بأمر وأحبَّ أن يتأكد أنه ليس بينهم أحد ليس منهم فقال : كل واحد يعرف صاحبه . يقول حذيفة : فبادرت الذي بجواري قلت من أنت ؟ قال فلان ، فتخلَّص من أن يسأله عن نفسه . فأخذ يستمع خبر القوم وجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخبره بالذي رأى.

لخَّص ابن كثير رحمه الله ذلك بقوله : ((**وأرسل ﷺ حذيفة ابن اليمان يخبُر له خبرهم ، فوجدهم كما وصفْنا**)) ؛ أي أن الرياح آذتهم أذى شديداً ((فجعلوا لا يقر لهم قرار ولا تثبت لهم خيمة ولا طنب ، ولا قِدر ولا شيء . فلما رأوا ذلك ترحلوا من ليلتهم)) .

((**ورأى أبا سفيان** – حذيفة رأى أبا سفيان – **يُصْلي ظهره بنار**)) ؛ وهذا يوضح أن القوم بما فيهم قادتهم في أذي شديد من شدة البرد الذي كان في تلك الليلة مع تلك الرياح ؛ فكان يصلي ظهره بنار : أي أشعل ناراً وجعلها تدفئ ظهره ، وكان مع حذيفة القوس ، يقول ووضعتُ النبل ولو شئت لقتلته ، لكني ذكرت قول النبي ﷺ: ((اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ)) يعني لا تهيّجهم ، فامتنعت من ذلك ، ولهذا يقول ابن كثير : ((**ولو شاء حذيفة لقتله**)) ؛ لكن الذي منعه من ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام نهاه أن يهيج القوم أو يستثيرهم .

((**ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره برحيلهم**)) ؛ فجاء حذيفة إلى النبي ﷺ وذكر له أن القوم بهذه الصفة وأنهم يتشاورون في الرحيل .

هذا الذي ساقه هنا الحافظ ابن كثير رحمه الله – ولاسيما قوله : ((فوجدهم كما وصفنا)) يعني الأوصاف التي تتعلق بحال كفار قريش – جاءت في رواية ابن إسحاق ، وذكر ابن كثير في البداية أن هذه الرواية منقطعة من هذا الوجه ، والحديث مخرج في صحيح مسلم عن إبراهيم التيمي عن أبيه يزيد ابن شريك التيمي قال : ((كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ– يعني أحسست حينئذ بالبرد – فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»)) .

قال رحمه الله :

[فلما أصبح رسول الله ﷺ غدا إلى المدينة وقد وضع الناس السلاح فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وهو يغتسل في بيت أم سلمة ، فقال : أوضعتم السلاح ؟ أما نحن فلم نضع أسلحتنا ، انهد إلى هؤلاء ، يعني بني قريظة] .

****

((**فلما أصبح رسول الله ﷺ** – وانفضت تلك الجموع – **غدا إلى المدينة وقد وضع الناس السلاح**)) ؛ يعني انتهت المعركة .

((**فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وهو يغتسل في بيت أم سلمة فقال : أوضعتم السلاح؟ أما نحن** – أي الملائكة – **فلم نضع بعد أسلحتنا ، انهد** – أي انهض وقُم – **إلى هؤلاء يعني يهود بني قريظة**)) ؛ فمباشرة بدأت غزوة بني قريظة ، مع الجهد والتعب الشديد والشهر الكامل وحفْر الخندق والجهود التي حصلت مباشرة ينهض النبي عليه الصلاة والسلام ويأمر الصحابة الكرام رضي الله عنهم للنهوض لغزو يهود بني قريظة.

وانتهت غزوة الأحزاب لم يُصَبْ المسلمون فيها بضرر ، ولم يُقتل منهم إلا ثمانية أشخاص فقط ، وقُتل من المشركين أربعة ، مع أن الجموع التي تجمَّعت لمقاتلة المسلمين تقرب من العشرة آلاف مقاتل ولم يقتل من المسلمين إلا ثمانية أشخاص ، وهم شهداء قُتلوا في سبيل الله ونصرةً لدين الله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

[فصلٌ (يذكر فيه غزوة بني قريظة) : فنهض ﷺ من وقته إليهم ، وأمر المسلمين أن لا يصلي أحد صلاة العصر ـ وقد كان دخل وقتها ـ إلا في بني قريظة . فراح المسلمون أرسالاً ، وكان منهم من صلى العصر في الطريق ، وقالوا : لم يرِد رسول الله ترك الصلاة

، إنما أراد تعجيل السير ، وكان منهم من لم يصلِّ حتى غربت الشمس ووصل إلى بني قريظة ، ولم يعنِّف ﷺ واحداً من الفريقين . قال ابن حزم : وهؤلاء هم المصيبون وأولئك مخطئون مأجورون ، وعلِم الله أنَّا لو كنا هناك لم نصلِّ العصر إلا في بني قريظة ولو بعد أيام . قلت : أما ابن حزم فإنه معذور لأنه من كبراء الظاهرية ، ولا يمكنه العدول عن هذا النص . ولكن في ترجيح أحد هذين الفعلين على الآخر نظر ، وذلك أنه ﷺ لم يعنِّف أحداً من الفريقين ، فمن يقول بتصويب كل مجتهد ، فكلٌّ منهما مصيب ولا ترجيح ، ومن يقول بأن المصيب واحد ـ وهو الحق لاشك فيه ولا مرية لدلائل من الكتاب والسنة كثيرة ـ فلابد على قوله من أن أحد الفريقين له أجران بإصابة الحق، وللفريق الآخر أجر . فنقول وبالله التوفيق : الذين صلّوا العصر في وقتها حازوا قصب السبق لأنهم امتثلوا أمره ﷺ في المبادرة إلى الجهاد وفعل الصلاة في وقتها ، ولاسيما صلاة العصر التي أكد الله سبحانه المحافظة عليها في كتابه بقوله تعالى : {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى } [البقرة:٢٣٨] وهي العصر على الصحيح المقطوع به إن شاء الله من بضعة عشر قولاً ، والتي جاءت السنة بالمحافظة عليها . فإن قيل : كان تأخير الصلاة للجهاد حينئذٍ جائزاً كما أنه ﷺ أخر العصر والمغرب يوم الخندق لشغل الجهاد ، والظهر أيضاً كما جاء في حديثٍ رواه النسائي من طريقين ؛ فالجواب أنه بتقدير تسليم هذا وأنه لم يتركها يومئذ نسياناً فقد تأسف على ذلك حيث يقول لما قال له عمر بن الخطاب ﷺ : (يا رسول الله ! ما كدتُ أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال والله ما صلّيتها) وهذا يُشعر بأنه ﷺ كان ناسياً لها لما هو فيه من الشغل ، كما جاء في الصحيحين عن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً) . والحاصل أن الذين صلوا العصر في الطريق جمعوا بين الأدلة وفهموا المعنى فلهم الأجر مرتين ، والآخرون حافظوا على أمره الخاص فلهم الأجر رضي الله عن جميعهم وأرضاهم] .

****

ثم عقد الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الفصل في ذكر غزوة بني قريظة ، وهذه الغزوة كانت على إثر غزوة الأحزاب وهي غزو للطائفة الثالثة من طوائف اليهود التي بالمدينة ، فإنه

لما قدِم المدينة صلوات الله وسلامه عليه كان فيها ثلاث طوائف من اليهود وهم : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكان بينهم عهد ، فأما يهود بني قينقاع فنقضوه على إثر غزوة بدر فقاتلهم عليه الصلاة والسلام بعدها ، وبنو النضير نقضوه بعد غزوة أحد فقاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام وأجلاهم بعدها ، ويهود بني قريظة نقضوا عهدهم في غزوة الأحزاب فقاتلهم النبي ﷺ بعدهم ، وكان يهود بنو قريظة أشد هؤلاء اليهود كفرًا وعنادًا وتكذيبًا للرسول عليه الصلاة والسلام وبُغضاً له ولدينه ومعاندةً للحق الذي جاء به صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا فعل بهم صلوات الله وسلامه عليه ما لم يفعله بالطائفتين الأوليين اللذين هم بنو قينقاع وبنو النضير .

قال الحافظ ابن كثير : ((**فنهض ﷺ من وقته إليهم**)) ؛ أي إلى يهود بني قريظة .

((**وأمر المسلمين أن لا يصلي أحد صلاة العصر ـ وقد كان دخل وقتها ـ إلا في بني قريظة**)) ؛ ومراده عليه الصلاة والسلام حث الجميع على الإسراع والمبادرة إلى الذهاب إلى بني قريظة بحيث يدركوا صلاة العصر هناك .

قال : ((**فراح المسلمون أرسالاً**)) ؛ يعني انطلقوا جماعات كلٌّ يجمع نفسه ، ويهيئ نفسه وسلاحه وانطلقوا ، وهذا فيه سرعة مبادرة الصحابة ﷺ مع ما كانوا عليه من جهد وإعياء ومشقة وتعب إلا أنهم لم يبالوا بشيء من ذلك وسارعوا مستجيبين لأمر النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال ((**وكان منهم من صلى العصر في الطريق ، وقالوا : لم يرِد رسول الله ترك الصلاة ، إنما أراد تعجيل السير ، وكان منهم من لم يصلِّ حتى غربت الشمس ووصل إلى بني قريظة**)) ؛ فكانوا في هذه المسألة على قولين :

- منهم من لم يصلِّ حتى غربت الشمس لأنهم أخذوا ظاهر قوله ((لا يصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة)) بأن تكون الصلاة في بني قريظة سواء خرج الوقت أو لم يخرج الوقت ، وحملوا ذلك على أنهم في حال معركة وأن لها وضع خاص ، فاستمروا وغربت الشمس ولم يصلُّوا العصر إلا هناك .
- ومنهم من صلى العصر في الطريق وقالوا إنما قصد النبي عليه الصلاة والسلام المسارعة وأما العصر فتصلى في وقتها .

فلما وصلوا إلى بني قريظة ((**لم يعنِّف ﷺ واحداً من الفريقين**)) .

((**قال ابن حزم : وهؤلاء هم المصيبون**)) ؛ يقصد الذين صلُّوا العصر في بني قريظة بعد خروج الوقت .

((**وأولئك مخطئون مأجورون**)) ؛ يعني الذين صلُّوا في الطريق .

((**وعلِم الله أنا لو كنا هناك لم نصلِّ العصر إلا في بني قريظة ولو بعد أيام**)) ؛ يعني ولو طال الوقت لمدة أيام لا نصليها إلا في بني قريظة .

يقول ابن كثير رحمه الله : ((**قلتُ : أما ابن حزم فإنه معذور لأنه من كبراء الظاهرية ولا يمكنه العدول عن هذا النص ، ولكن في ترجيح أحد هذين الفعلين على الآخر نظر ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يعنِّف واحداً من الفريقين ، فمن يقول بتصويب كل مجتهد ، فكل منهما مصيب ولا ترجيح**)) ؛ بناء على أنه عليه الصلاة والسلام لم يعنف أحداً من الفريقين .

((**ومن يقول بأن المصيب واحد – وهو الحق لاشك فيه ولا مرية لدلائل من الكتاب والسنة كثيرة – فلابد على قوله من أن أحد الفريقين له أجران بإصابة الحق ، وللفريق الآخر أجر**)) ؛ أي : أجرٌ واحد وخطؤه مغفور لاجتهاده .

ثم بيَّن رحمه الله تعالى أن الراجح من القولين هو فعل الذين صلّوا في الطريق ؛ صلوا العصر في وقتها وقالوا إن النبي ﷺ إنما أراد المسارعة .

قال : ((**فنقول وبالله التوفيق : الذين صلُّوا العصر في وقتها حازوا قصب السبق ، لأنهم امتثلوا أمره في المبادرة إلى الجهاد وفعل الصلاة في وقتها**)) ؛ فجمعوا بين امتثال أمرين له عليه الصلاة والسلام : الأول المسارعة للجهاد وهذا كان مقصوده ((لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)) ، والثاني امتثلوا أمره في الصلاة لوقتها ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أمر بأن تصلى الصلاة لوقتها .

((**ولاسيما صلاة العصر التي أكد الله سبحانه المحافظة عليها في كتابه بقوله تعالى : {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى }** [البقرة:٢٣٨] **وهي العصر على الصحيح المقطوع به إن شاء الله من بضعة عشر قولاً**)) لأن الأقوال في الصلاة الوسطى تصل إلى بضعة عشر قولاً . قال : ((**والتي جاءت السنة بالمحافظة عليها**)) .

والحديث مخرج في الصحيحين ((لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)) ولفظ البخاري (العصر) ، ولفظ مسلم الظهر ((لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة)) والإسناد عند مسلم هو نفس إسناد الإمام البخاري ، لكنه قال الظهر بدل العصر !! يقول الحافظ ابن حجر في الفتح : " وأما أصحاب المغازي فاتفقوا على أنها العصر " ولهذا بعضهم تأخرت عليه صلاة العصر فلم يصلها في بني قريظة إلا بعد غروب الشمس .

قال : ((**فإن قيل : كان تأخير الصلاة للجهاد حينئذ جائزاً**)) بدليل ماذا ؟

قال ((**كما أنه ﷺ أخَّر العصر والمغرب يوم الخندق لشغل الجهاد ، والظهر أيضاً كما جاء في حديثٍ رواه النسائي من طريقين**)) والحديث مر معنا عند المصنف رحمه الله .

قال : ((**فالجواب أنه بتقدير تسليم هذا وأنه لم يتركها يومئذ نسياناً ، فقد تأسف على ذلك**)) يعني على هذا الأمر الذي حصل .

((**حيث يقول لما قال له عمر بن الخطاب ﷺ : يا رسول الله ! ما كدتُ أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، قال فو الله ما صليتها**)) قال ذلك عليه الصلاة والسلام تأسفاً على هذا الأمر .

قال ((**وهذا مشعر بأنه ﷺ كان ناسياً لها لما هو فيه من الشغل ، كما جاء في الصحيحين عن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً "**)) الشاهد من قوله : ((شغلونا)) .

قال ابن كثير : ((**والحاصل**)) أي خلاصة القول .

((**أنَّ الذين صلُّوا العصر في الطريق جمعوا بين الأدلة**)) ؛ أي الأدلة التي هي الحث على المسارعة للجهاد ((لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)) ، والأدلة الأخرى التي فيها الأمر بالصلاة لوقتها .

((**وفهموا المعنى فلهم الأجر مرتين**)) ؛ أجر الاجتهاد ، وأجر الإصابة .

((**والآخرون حافظوا على أمره الخاص فلهم الأجر رضي الله عنهم جميعا وأرضاهم**)) ؛ ونحو هذا التقرير والاستدلال ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد .

قال رحمه الله :

[وأعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب ﷺ ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، ونازل حصون بني قريظة وحصرهم خمساً وعشرين ليلة ، وعرَض عليهم سيدهم كعب بن أسد ثلاث خصال : إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد في دينه ، وإما أن يقتلوا ذراريهم ويخرجوا جرائد فيقاتلوا حتى يُقتلوا عن آخرهم ، أو يخلصوا فيصيبوا بعد الأولاد والنساء ، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه يوم سبت حين يأمن المسلمون شرهم ، فأبوا عليه واحدة منهن] .

****

قال رحمه الله تعالى : ((**وأعطى رسول الله ﷺ الراية** – وهي علم الجيش – **علي بن أبي طالب ﷺ ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ﷺ ، ونازل حصون بني قريظة وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة**))؛ وهي مدة تقرب من المدة التي حوصر فيها المسلمون في المدينة ورجعت تلك الجيوش خائبة خاسرة لم ينالوا خيرا وكفى الله ﷻ المؤمنين القتال .

في أثناء الحصار ((**عرض عليهم سيدهم كعب بن أسد ثلاث خصال**)) ؛ قال لهم : أنتم تعلمون أنه جاء في كتابكم ما يدل على صدق ما جاء به محمد .

الخيار الأول : ((**إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد في دينه**)) ؛ فرفضوا منه هذا العرض .

الخيار الثاني : ((**وإما أن يقتلوا ذراريهم ويخرجوا جرائد فيقاتلوا حتى يُقتلوا عن آخرهم ، أو يخلصوا فيصيبوا بعد الأولاد والنساء**)) ؛ يعني تقتلون الآن الأولاد والنساء وتدخلون معهم في معركة وأنتم بين أمرين : إما أنكم تُقتلوا جميعاً ، فإن قُتلتم لا يكون وراءكم أولاد وذرية تكون بأيدي المسلمين ، وإما أن تنتصروا عليهم ، فإذا انتصرتم عليهم اتخذوا فيما بعد نساء وذرية ، فهذا الخيار الثاني أيضاً قوبل من قومه بالرفض .

الخيار الثالث : ((**وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه يوم سبت حين يأمن المسلمون شرهم**)) ؛ لأن المسلمون يعرفون عنهم أنهم في يوم السبت لا يقاتلون فيه ، ومر معنا قريباً أنهم قالوا للمشركين : "اليوم يوم سبت لا نقاتل فيه " .

((**فأبوا عليه واحدة منهن**)) ؛ يعني جميع هذه الخيارات الثلاثة قوبلت بالرفض ولم يستجيبوا له في شيء منها.

قال رحمه الله :

[وكان قد دخل معهم في الحصن حيي بن أخطب حين انصرفت قريش ، لأنه كان أعطاهم عهداً بذلك حتى نقضوا العهد وجعلوا يسبون رسول الله ﷺ ويُسمِعون أصحابه ذلك ، فأراد رسول الله ﷺ أن يخاطبهم، فقال له علي رضي الله عنه : لا تقرب منهم يا رسول الله ـ خشية أن يسمع منهم شيئاً . فقال : " لو قد رأوني لم يقولوا شيئاً " ، فلما رأوه لم يستطع منهم أحد أن يتكلم بشيء] .

****

قال : ((**وكان قد دخل معهم في الحصن حيي ابن أخطب**)) ؛ وهو من يهود ابن النضير وهو الذي تسبب لهم في هذا الإشكال ونقض العهد واحتال على سيدهم كعب وأخذ يغريه حتى وافق على نقض العهد ، وقال له حيي ابن أخطب : لو حصل حصار من المسلمين لكم والمشركين انهزموا أنا أدخل معكم في الحصن وأكون معكم في الحصار ، فالتزم بما وعدهم به وجاء ودخل معهم في حصونهم ؛ هذا قوا ابن كثير : ((**وقد دخل معهم في الحصن حيي ابن اخطب وهو من يهود بني النضير حين انصرفت قريش لأنه قد كان أعطاهم عهدا بذلك**)) .

قال : ((**حتى نقضوا العهد وجعلوا يسبون رسول الله ﷺ ويُسمعون أصحابه ذلك ، فأراد رسول الله ﷺ أن يخاطبهم ، فقال له علي رضي الله عنه : لا تقرب منهم يا رسول الله ، خشية أن يسمع منهم شيئاً**)) حتى لا يريدون أن يسمع النبي عليه الصلاة والسلام شيئا من سبابهم وشتائمهم .

((**فقال عليه الصلاة والسلام : " لو قد رأوني لم يقولوا شيئاً " ، فلما رأوه لم يستطع أحد منهم أن يتكلم بشيء**)) .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهمّ صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبيّنا محمد و آله وصحبه

..*